امل ورجاء !

بقلم : ابراهيم مجاهد الجزائري المحامي

لو استطعت ان اغادر هذه الارض
الى ارض العالم ، لفعلت
كيما اعيش نكرة ولا مفهماً
في وطنيتي
في حب بلادي
وفي الذود عن حوضها
تجاه من احتلها
وشقت اهلها
ويعيث اليوم فساداً في ارضها ؛
ولكني ما استطعت ولن استطيع
ان اغادر هذه الارض
حيث عدوي وصديقي
حيث بلائي وعزائي
حيث حياتي !

ساظل في هذه الارض
في هذه الارض اليتيمة
في هذه الارض الثكلى
في هذه الارض الجريحة الفؤاد
الى ان يطل عليها ، من الافق القريب ،
في قلب هذا الليل الطويل منذ العصور ،
بصيص من نور ! . . .
من نور فجر جديد !

حلب ابراهيم مجاهد الجزائري

نطق من الصحراء

بقلم :

رئيف خوري

في هذا المقهى [العربي] المتواضع ، على هذا السطح — جار البحر — في مدينة طرطوس التي اقمت بها زمنا أعلم الادب العربي كنت ألقى صديقي [الطرطوسي] كل مساء اذا انتهى أجل الدروس اليومية فغسلت يدي من غبار الطبشور وخرجت ارطب الحلق بفنجان من قهوة واشرح الصدر بهواء البحر .

وكان هو — اعني صديقي الطرطوسي — كهلا قارب عتبة الشيخوخة ينفق من ريع املاكه الصغيرة في تلك البقعة الساحلية الغنية ببساتين الليمون وكروم الزيتون . ولست اشك ان أحب اعماله اليه في هذه المرحلة من العمر كان تدخين النارجيلة . ولكن ليست النارجيلة هي التي مدت بيني وبينه سببا من الصراحة فانا لا ادخنها . بل هي الروايات التي كان صديقي يحب مطالعتها حبا يجيء بعد تدخينه النارجيلة في الدرجة الثانية .

وقد عرفني بين كتاب القصص وعرفته بين هواتها فاستوثقت بيننا الصلة المتينة صلة الاخذ والعطاء في بضاعة الكلام وهي بضاعة بشرية نافقة منذ ان قيل — الانسان حيوان ناطق .

واذا به يقول لي يوما —

— ان الكثير من هذه الروايات التي تكتبونها ليست شيئا اذا قيست بعجائب الحياة وغرائبها مما يدل على ان الحياة لا تزال اعظم مؤلفي القصص وابرعهم خيالا . وكنت اشتهي

أن اثبت بعض هذه القصص التي زودتني بها الحياة في عمري الطويل غير اني لا اجيد الكتابة .

قلت له وبين يدى فنجان القهوة اهم ان اتمزه — حدثني فاكتب عنك .

قال وقد اشرق وجهه وهو ينفخ دفعة من دخان النارجيلة — وهل انت جاد ؟

ثم لم ينتظر مني الجواب . فلشدما كان حريصا ان يؤدي الي وقائع هذه القصة الحقيقة التي استحلفني بان لا افرط فيها بحرف لانه كان — لسبب من الاسباب — لا يشتهي شيئا كان يقرأها مرسومة بالقلم على القرطاس .

قال — صدقني ان ما تسمعه ليس خيالا . فالخيال ترف تعاطاه الادباء ولست منهم . على اني اجزت لنفسي تبديل الاسماء . وماذا تهمك الاسماء ما زالت العبرة هي المقصودة . وما زالت امامك صورة مفجعة لما قد يفور في هذا الكنز العجيب الذي هو الانسان من دفائن قبيحة وجميلة ، ارضية وحشية ، وسماوية ملائكية مع الاسرار التي لا تفهم .

كان لي في الحرب الماضية (وهو يقصد الحرب الكونية الاولى) جار مات بالامس فواريته التراب وحدي ، اذ كان في هذا العالم وحيدا منقطعاً ولست اذكر لك الان من امره شيئاسوى انه دخل بيته ذات يوم في غضون الحرب الماضية مع اول عتمة من الليل . الا انه لم يصفق الباب بعنف ولم يمعن فى اولاده ركلا وصفعا ولم يذق زوجانه الوانا من الشتم البذيء ، بل مضى من فوره الى الزاوية في وطء خفيف ، وحذف وسادة منبعثة مندلقة الاحشاء كانت هناك واستلقى على الجدار البائخ الذي تفسخ منه الطين فنتأت حجارته لم يقهقه ولم تنفض انفاسه رائحة الخمر . لم يتلجلج فى كلامه ولم يضطرب فى مشيته ولم يتلفت عن سحنة كاسرة كل ما فيه شف عن الم غائص في العميق من نفسه خاط شفتيه الواحدة بالاخرى فما تنبسان وقبض اسارير وجهه الشاحب فدار الهمس بين افراد العائلة — ماذا اصابه . . . فما عرفناه مرة على هذه الحال من الصمت والوجوم والسهوم أسأليه يا علية انت احب زوجاته اليه ويحتمل منك مالا يحتمل منا . بل اسأله يا قاسم . انت اكبر اولاده وهو لا يندفع في اهانتك كما يندفع في اهانتنا .

ولكن هذا لم يكن فيهم من يجسر على سؤاله . كلهم يعرفون احتقاره لهم ويخافون شراسته وبطشه . افلم يقذف بعشائهم امس من النافذة غير مشفق على جوعهم وهزالهم .

وهكذا لبثوا طويلا ابصارهم مسمرة بعضها الى بعض حتى تنهد الرجل اخيرا فى تضايق شديد فلفحتهم انفاسه فانفتلوا اليه على غير شعور او ارادة فملأت ابصارهم دمعة كبيرة تزلجت على خده فتركت عليه اثرا واضحا من البلل ، وكأن تلك الدمعة ذوبت ما تجمد في صدورهم من كره له ورهبة منه ، فزحفوا حتى صاروا حوله في حلقة من الابدان الهزيلة والملابس الممزقة .

فقلب فيهم عينين نديتين بالدمع طريئتين بالحنان وساءلهم — اين محمد ؟ ومحمد اصغر اولاده طفل نيف على السنتين وقد غضب ابوه يوم ولادته غضبا شديداً فكاد يقذف به في الفضاء معيدا — على قوله — هدية الله اليه .

لذلك عجبوا جميعا ان يساءلهم عنه واوجسوا خيفة على انفسهم ما لبثوا ان اتوه به متسائلين فى نفوسهم — ما عساه يريد من طفل لا يكاد يحسن الكلمة .

— اتعلمون — قال لهم بصوت تعروه الرجفة — اي شأن لي معكم ومعه . . . لقد كفاني هذا الصغير جريمة القتل وأنقاذكم من الموت .

وهنا جفت حلوقهم وذبلت شفاههم فلم يستطيعوا ان يحاوروه الا بابصارهم — زدنا ، زدنا ، فاننا لم نفهم .

فاستانف كلامه قائلا وهو يداعب الصغير الذي ارضته رقة ابيه عليه — لقد خرجت امس التمس لكم عشاء وانتم تعلمون كم ضيقت علينا الحرب وكم صرنا نكابد في احراز اللقمة . خرجت والدنيا قاتمة في عيني كليالي الشتاء العاصفة اذا ازدردت على هذا الشاطيء نجوم الفلك وابتلعت قناديل الصيادين في الزوارق وغرقت فى بحر من الظلام . فانتهيت

الى بقـــال في البلدة حيبته فرد علي ردا فاترا جرخني في كبريائي . فعضضت على الجرح وطلبت اليه ان يزن لي شيئا من (الخضرة) ادفع ثمنه فيما بعد . فزم بانفه وادار ظهره فاستجمعت ارادتي المضعضعة كي لا تنهمر الدموع من عيني ولبثت واقفا لا ابرح مكاني . فعاد الي قائلا في سخرية وعجرفة : يا حبيبي اسلفناك كثيرا فعجزت عن وفاء الدين . فنحن نسـامحك ونعتبر ما اعطيناك صدقة . فتحول الى غيرنا الان .

الله الله لقد اصبحت اذن شحاذا !

وددت ان اغوص بين سمع الارض وبصرهـا . وددت لو اذلي سيفاشفي به غلي وعرفت كيف يظلم البشر الى الدماء على اني اخر الامر لم اشبه شيئا كأن يكون عندي بعض السم .

ووجدتني امد يدي الى طبق (الخضرة) فاخذ منها ما اشاء والبقال ساكت ابكم لما يتجلى له في عيني من شبح الاجرام

ثم انصرفت فقصدت الصيدلية طالبا بعض السم زاعما انني انما اريد التخلص من الفئران والجرذان الكثيرة في بيتنا

ففيما انا عائد افكر بتسميم الطعام لنفسي خطرتم ببالي . فاخذتني رقة الزوج والاب وهزتني مروءة معجونة باليأس ماذا يحل بكم اذا مت ففارقتكم وهنا عولت على امر فظيع

فلما وصلت البيت وسلمت [الخضرة] الى علية فهيأتها ووضعتها على النار وراحت تعالج سائر اشغالها — انسللت الى القدر فالقيت فيه السم لتتعشاه فتموت جميعا .

وصمت الاب على وشك الاختناق بجهشاته ودموعه .

— وصاح افراد العائلة صيحة واحدة رجفت لهـا اركان البيت .

وكان الرجل قد تمالك نفسه فمضى في حديثه على اني حزنت جدا وجلست خافض الرأس افكر في من يدفننا جميعا وفي التراب الذي يطوينا والدود الذي ينهشنا . فما مر قليل من وقت حتى رأيت محمدا ، هـذا الطفل الذي يجهل النطق يدب نحوي على غير عادته ويستعين بركبتي على الوقوف ويحدق في متمتما — بابا — ينعتك انه لعني ! واللعنة ابعد مما تكون عن عقله الصغير وشفتيه الرخصتين .

فما اسرع ما اصابتني الرعدة . وما اشد ما تصبب العرق من جبيني الذي تثلم بثلام عميقة سبحان الله يلعنني بفم هذا الطفل فلذة كبدي . يلقي على شفتيه كلمة راعبة هائلة برغم ضعفها واضطرابهـا وهي تخرج منه . فنهضت غير مختار واتجهت الى القدر المسموم وقذفت به من النافذة . ولست اشك انكم لعنتموني انتم الكبار في قلوبكم لخوفكم مني وظننتم عملي احدى عربداتي التي لا تطاق .

قال محدثي صديقي الطرطوسي — وهنـا قطع الرجل كلامه . وعطف على طفله محمد يقبله . ثم امر عائلته بالانصراف الى النوم . فقاموا بلا عشـاء مثقلين مضنوكين ، على انني دعوته الى العمل عندي في صباح اليوم التـالي فاقبل يخبط الزيتون ولمست فيه قوة متجددة على العمل وتغيرا في اخلاقه وسيرته في عائلته لكن العمل عندي ما لبث ان انتهى ، وما لبث اولاده ان ماتوا جوعا واحدا بعد الاخر . وماتت زوجاته فلم يسلم سواه بمفرده . وكان يقول لي — سبحان الله لمـاذا ردني عن جريمتي في ذلك اليوم ما دام سيقبض ارواح اطفالي وزوجاتي ؟ سبحان الله لعله اراد ان يبقيني . لأدفنهم بيدي ثم تدفنني انت . . .

وهنا سكت صديقي الطرطوسي سكتة ثم قال — هذه هي القصة . وقد جاء الان دورك في كتـابتها . فلا تزد عليها حرفا ولا تنقص منها حرفا . قلت : بلى سازيد عليها انني لا ادري اذا كان الله هو الذي رد صاحبك حقـا عن جريمته . لكنني واثق من ان الله ليس هو الذي قبض ارواح الاطفال والزوجات بل قبضها الجوع . افترستها الحرب . يالالآفة . . . . .

قال — أهكذا ترى ؟

وكأنه فطن فجاءة الى شيء خطير . فصفق بيديه يطلب [نارة] لنارجيلته .

رئيف خوري